

فتح إفريقية (١)

رسم
إبراهيم سمرة

بقلم
عبد الحميد عبد القصود



المؤسسة العربية للدراسات
والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ١٩٨٧م - ١٩٦٧هـ

تختلف الفتوحات الإسلامية العربية لقارة أفريقيا ، عن أية فتوحات قام بها القواد المسلمون ، في أنحاء متفرقة من العالم . . فهذه الفتوحات حدثت أكثر من مرة ، وفي فترات زمنية متباعدة حيناً ، متقاربة أحياناً ، كما أنها تمت على يد أكثر من قائد إسلامي عظيم .
وفي كل مرة كان يتم فيها فتح هذه البلاد ، كان يعقبها فتن وثورات من البربر - سكان هذه البلاد - بمجرد انسحاب جيوش المسلمين منها ، وكان سكان هذه البلاد يعودون إلى وئيليتهم مرة أخرى ، مما يضطر القواد المسلمين إلى إعادة الفتح مرات ومرات ، حتى استقر الأمر أخيراً للمسلمين وتمكن الإسلام من قلوب هؤلاء البربر .





وكان عمرو بن العاص أول الفاتحين لبلاد القارة الأفريقية ، وكان قائداً
إسلامياً يتصف بالخبرة والدهاء ، في الشؤون السياسية والعسكرية ،
بالإضافة إلى كونه حاداً بالفطنة والتجربة .

فبعد أن أتم فتح مصر ، واستتب له الأمر فيها ، فنشر الإسلام ورفع
رأيته عالية خفاقة فوق ربوعها ، برزت شخصيته القوية ، وصار موضع ثقة
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ثم أخذ يتطلع إلى فتح بقية بلدان القارة
الأفريقية ، ونشر الإسلام فيها .





سَارَ عَمْرُو فِي حَيْشٍ مِنَ الْفَرَسَانِ (رَاكِبِي الْخَيْلِ) حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمٍ
«بَرْقَةٍ» وَفَتَحَهَا ، وَتَمَّ الصَّلَاحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا عَلَى جَزِيَّةٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ .
ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمٍ «طَرَابُلُسَ» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ،
وَنَزَلَ عَلَى قُبَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُشْرِفُ عَلَى شَرْقِ الْإِقْلِيمِ ، وَظَلَّ يُحَاصِرُ الْمِنْطَقَةَ
لِمُدَّةٍ شَهْرٍ ، دُونَ أَنْ تَسْتَلِمَ لَهُ .



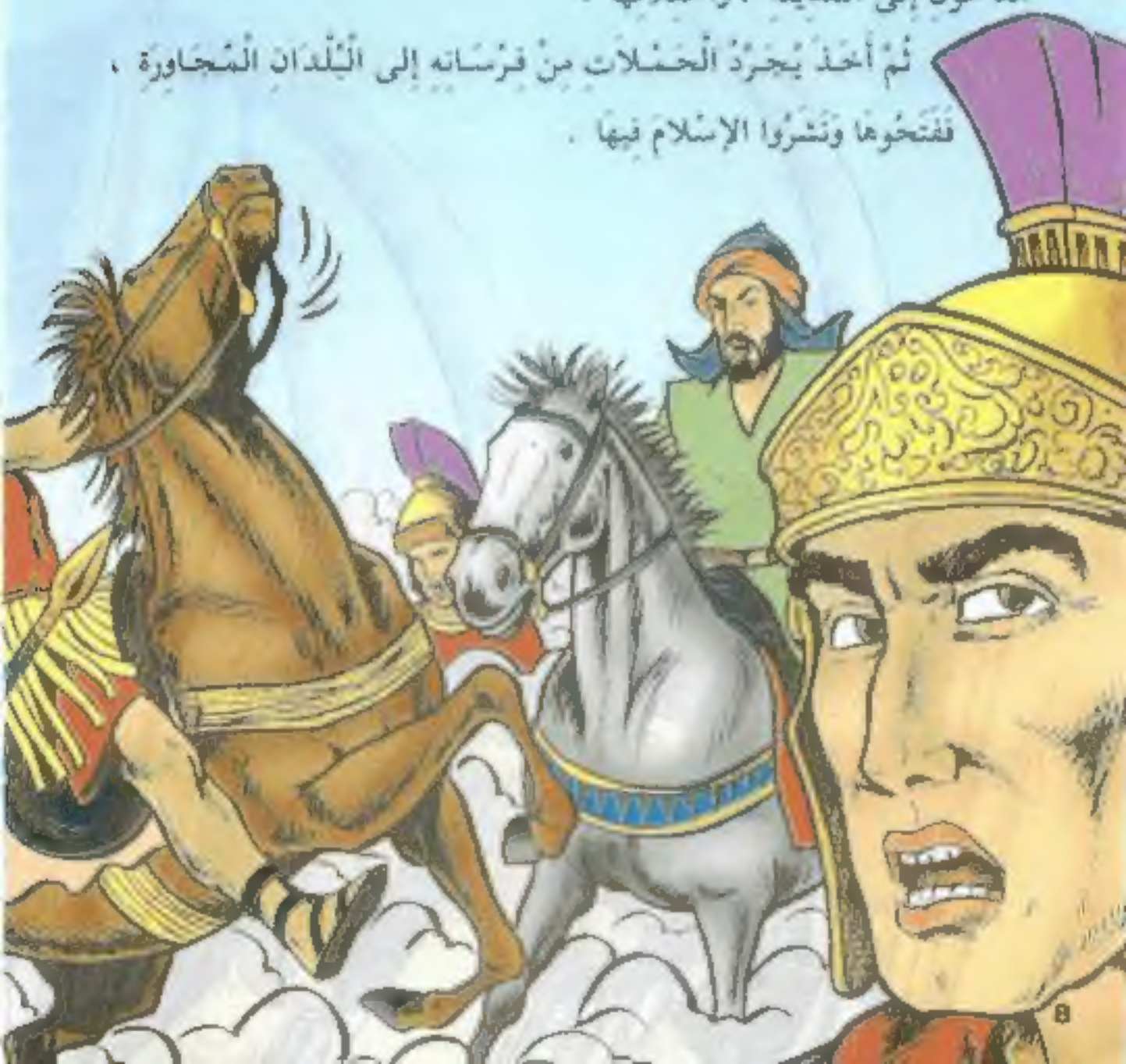
وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنْ عَسْكَرِ عُمُرٍ لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا
اِبْتَعَدُوا عَنِ الْمَعْنَكِرِ ، وَأَصَابَهُمُ الْحَرُّ وَالتَّعَبُ الشَّدِيدُ ،
جَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّتِي يَقَعُ عَلَى
شَاطِئِ الْبَحْرِ مُبَاشَرَةً فَانْكَشَفُوا سَفَنَ الرُّومِ الرَّاسِيَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ
الشَّاطِئِ ، وَقَدْ غَاضَ عَنْهَا الْمَاءُ ، نَتِيجَةً حَرَكَةِ جَذْرِ الْبَحْرِ .



وفى الحال دخل هؤلاء الرجال إلى المدينة فى غفلة من أهلها ، الذين كانوا يستريحون من عناء الحر ، ثم وصلوا إلى كنيسة المدينة ، فصعدوا قبابها ، وأخذوا يكبرون .

فرع الروم فرعا شديدا ، وهرتوا إلى سفهم ، ظنا منهم أن جيش المسلمين قد دخل المدينة ، وبهذه الحيلة تمكن جيش عسرو من الدخول إلى المدينة ، واحتلالها .

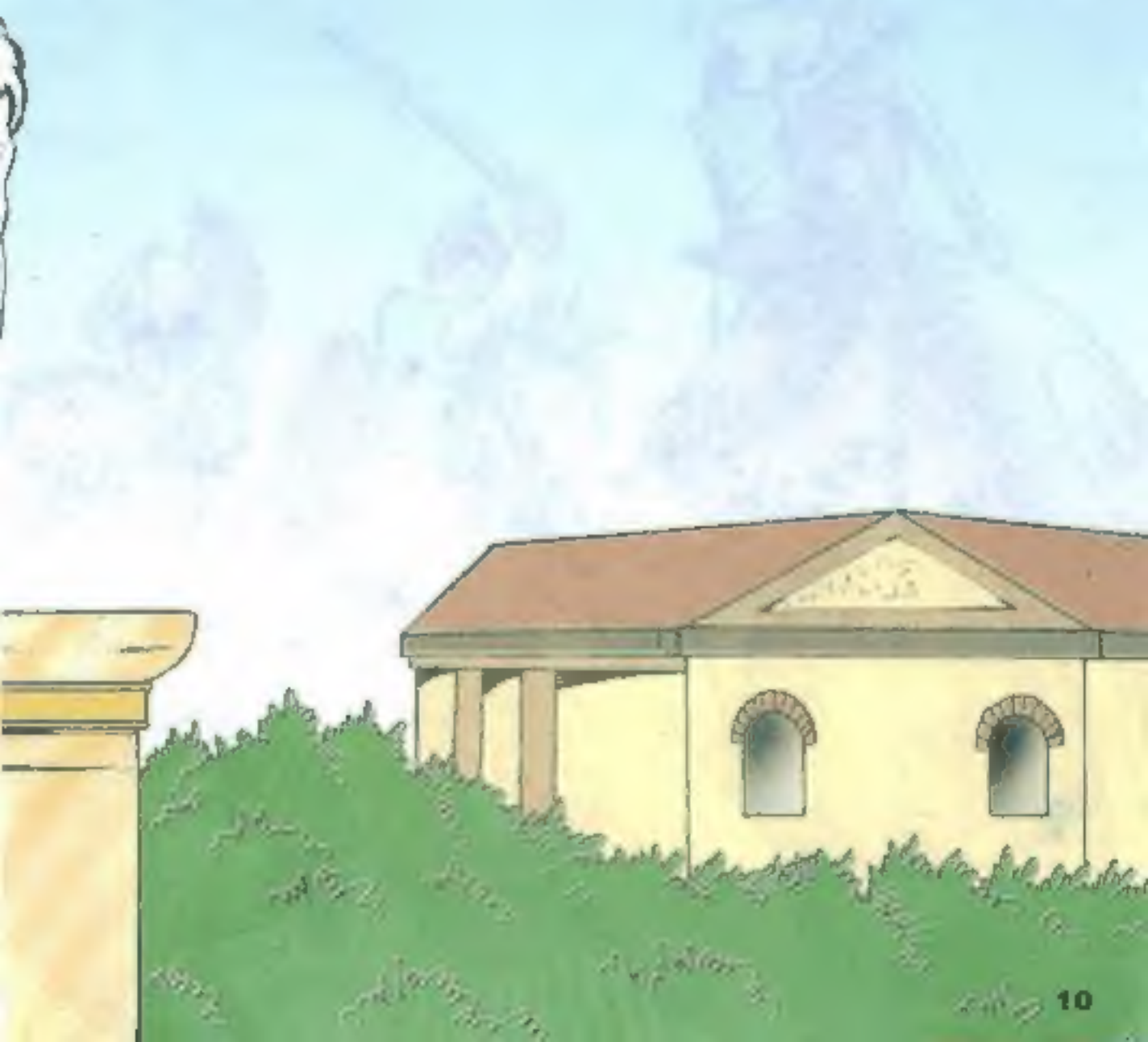
ثم أخذ يجرّد الحملات من قرساته إلى البلدان المجاورة ، ففتحوها ونشروا الإسلام فيها .



بَعْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، يَسْتَأْذِنُهُ فِي
مَدِّ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى بَقِيَّةِ بِلْدَانِ الْقَارَةِ الْأَفْرِيشِيَّةِ ، فَتَهَادَّ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ .
فَمَا كَانَ مِنْ عُمَرُو إِلَّا أَنَّهُ أَطَاعَ طَاعَةً كَامِلَةً ، وَرَجَعَ بِجَيْشِهِ إِلَى مِصْرَ ، بَعْدَ
أَن تَرَكَ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ فِي عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ .



في عهد ولاية عثمان بن عفان ، تولى عبد الله بن أبي السرح ، حاكم مصر ، وطلب من عثمان مددا لتوجيه الفتح إلى أفريقيا ، فجهز له عثمان جيشا من أهل المدينة وفيه جماعة من أعيان الصحابة . (عدة الجيش ٤ آلاف فارس و ٨٠٠ راجل) وأعانهم عثمان بألف من الإبل ، وأمر عليهم مروان بن الحكم ، حتى يصلوا مصر ، فتولى عبد الله بن أبي السرح قيادتهم .





وفي مصر ينقلهم عدده من أسى السرح . ويضم إلى الجيش جيشاً
من عده ، ليصبح لعدد الكلى للجيش عشرة آلاف مقاتل ثم يرحل
الجيش بعد شاطئ البحر المتوسط . حتى يصل إلى بركة ، وهناك
يقاتلهم عنه من دفع قسم من المسلمين ثم يرحل الجميع نحو
صرائس . التي كان الروم ليرتطبون قد منظروا عنها بعد عودة عمرو
أس لعاص إلى مصر وتحدث معارك حامية من جيش المسلمين .
وجيش لروم ، وينهزم الروم أمامهم . وبذلك يسترد المسلمون طرائس
ثانية . ويصبح فلم يتأ كنه تحت مظرة المسلمين مرة أخرى

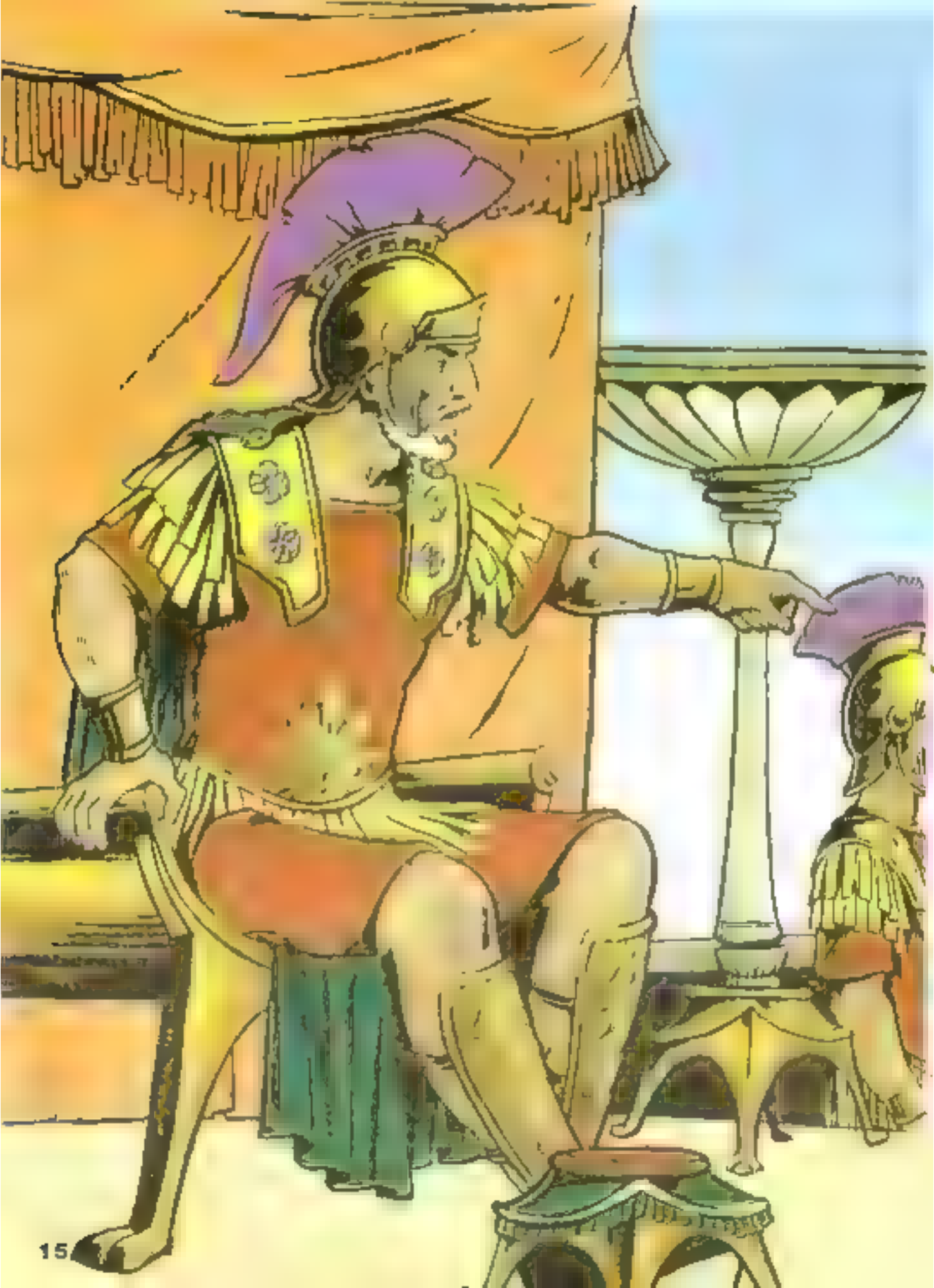


ثُمَّ تَتَمَدَّدُ عِندَ امْرِئٍ إِلَى لَسَانِ الْحَيْثِ ، فَيُصَلُّونَ إِلَى
حُدُودِ نُونِسْ أَوْ كَمَا تَنُوسُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا
حُدُودَ الشَّيْءِ الْإِفْرِيشِيِّ ، وَقَعْدَةٌ تَحْتَ سَيْطَرِ الرُّومِ الْبِرَنْطِيِّ
وَكَانَ سَكَّانُ هَذِهِ الْمَدِينِ كَثِيرًا مِنَ الْبُرْجَرِ . وَكَانَ يَحْكُمُهُمْ
مَلِكٌ يُدْعَى جَرَّ جِيرَ .

و يَطْرُقُ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْصَابِهِمْ ابْتَوَتْهُ بَوَابُ لَيْسَتْ خُرُ حَسْر . الْاَدَى يُظُنُّ
عَيْنُهُمْ مِنْ مَسْكَةٍ . سَالَا عَنْ مَقْصِدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، فَسُئِلُوا لَهُ . نَهْمُ
يَدْعُوهُ اِلَى الدَّخُولِ فِي الْاَدَى دَحْلٍ فِيهِ اَهْلُ مَصْرَ ، وَدَفْعِ الْحَرَبَةِ
عَنْ يَدِ هَؤُلَاءِ صَاغِرٌ .

وَلَكِنْ جُرْ جِيرَ يَغْتَبِرُهُ اَعْدَاؤُهُ لِحَقِّهِ كَمَنْكَ عَظِيمٍ بِحُكْمِهِ كُلُّ هَذِهِ
تِلَاد . لَيْ نَسَدُّ اِلَى حُدُودِ لِمَحِيطِ لَا طَسِي





وَأَحْبَرَا كَاتِبَ الْحَرْبِ حُشْدَ حَرْحِيرٍ حَيْثُ مِنْ لِرُومٍ وَالرُّبْرُ قَوَائِمُهُ
 مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَتَى . اتَّفَقَى بَحِيشُ الْمُسْلِمِينَ بِقَبِيلِ الْعَدَدِ وَالْأَعْدَةِ .
 وَأَقْتَتَلُوا فَتَلَا تَدِيدًا عَدَدَ مَدَدِهِ . سَسْطَمَهُ . مَثَرًا الْمَلِكُ حَرْحِيرُ
 فِي هَذِهِ الْأَثَاءِ يَنْقَطِعُ حَرْحِيرُ حَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْحَلِيقَةِ غُثْمَانُ ثِي عَدَدَانِ .
 فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ عَدَدُ اللَّهِ فِي الرُّبْرِ فِي حِمْدَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ . سَأَتُوهُ بِخَبَرِهِمْ
 فَلَمَّا وَصَلُوا . إِلَى مَعْمَكِرِ الْمُسْلِمِينَ . عَلَا الْكَبِيرُ وَبَهْلَسُ . عَمَّا جَعَلَ
 لِحُزُوفٍ وَلِغَرَعٍ يَذْنَبُ فِي قُبُورِ عِبَادِ الْكَلْبِ حَرْحِيرُ . وَلَمَّا سَأَلَ حَرْحِيرُ
 رَحَالَهُ عَنِ الْحَمْرِ . أَحْمَرُوهُ بِأَنَّ حَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَمَاهُ مَدَدٌ عَظِيمٌ
 وَأَوْهَنَ ذَلِكَ مِنْ عَرَبِهِ حَرْحِيرُ





ورأى عند الله من المرء أن قتال المسلمين بسهم كل يوم منذ الصباح
الساكر ، فإذا أدد لظهر عادوا إلى حسامهم . فلا ينحدذ القنا إلا في
صباح اليوم التالي

ودات يوم كان عند الله من الربير ثقاتل في صفوف المسلمين ، فم ير
عند الله من أبي السرح ، فلما سأل عن سب احضائه ، عرف أن جرحير ،
قد ندى بين حنوده بأن من قبل عند الله من أبي السرح بال حائرة عظيمة ،
علاوة على الروح من امة جرحير . لذلك فقد اثر عند الله من أبي السرح
أن يدبر المعركة من خلف الصفوف ، حتى لا يؤثر استشهادة على
عريمة حنوده ، وثباتهم ضد جيش جرحير



وفي اليوم التالي اثار عدو الله من الرثير على عدو الله من نبي
السرّح . ما ن شامل الحيلة مثلها وان نادى في حنوده أيضا بأن
من قتل خرّحير . هذه حائرة ماله عظيمه . علاوه على تونى
حكّم البلاد التي كان يحكّمها خرّحير
فما فعل ذلك . حاف خرّحير خوف شديد من حنود
المسلمين برغم قلة عددهم .



ولقد طار قتال المسلمين مع جنود حروجر . واستمرت الحرب بينهم
 سجلاً . لحاً عند الله من الرزق الى حيلة جديدة ، من شأنها ان يُعجل
 بهديه الحرب من الحشيش المسحرس . فقد أسار على عبد الله بن أبي
 السرح ما أن يثوث جماعه من انصار المسلمين في حياضهم ، يسريخون
 ويتهاون لمواقفه الضال . بعد ان بسط الرزق فوثقهم في قتال لمسلمي
 منذ الصباح . وحتى وقت الظهر . فزار روافض لاسماء ولا تصرف
 براحه في معسكرهم لم يملكه هؤلاء المسلمين من ذلك



وفي اليوم التالي ، مكث فريق من شجعان المسلمين
في خيامهم للراحة ، وخبئولهم مرسجة ، استعداداً
للانطلاق في أية لحظة . فلما أذن للظهور ، وأراد
جنود جرّير أن يهيموا بالانصراف لم يمكنهم هؤلاء
الأبطال من ذلك ، وانطلق عبد الله بن الزبير مع من
معه من فرسان المسلمين وحملوا على الزبير حملة

رجل واحد .



لَمْ يَتِمَّكَنَ الْبَرَبَرُ مِنْ صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ ، وَحَدَّثَ ارْتِبَاكَ
 عَظِيمَ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَالَّتِي اخْتَلَتْ نِظَامُهَا وَقَتْلَ عَدَدٍ عَظِيمٍ مِنْ جُنُودِ الْبَرَبَرِ
 وَقَوَادِهِمْ ، بَيْنَمَا لَاذَ الْيَاقُونُ بِالْفِرَارِ ، أَوْ وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ
 بَعْدَ ذَلِكَ نَازَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْمَلِكُ جُرْجِيرٌ ، وَبَعْدَ صَوْلَاتٍ
 وَجَوْلَاتٍ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وَأَخَذَتْ ابْنَةُ جُرْجِيرٍ أُسِيرَةً مَعَ أُسْرَى الْبَرَبَرِ .
 وَهَكَذَا تَمَكَّنَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حِصَارِ الْمَدِينَةِ ، وَفَتْحِهَا . ثُمَّ أَخَذَ
 الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ قِبَائِلِ الْبَرَبَرِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ أَصُولَ
 الدِّينِ الْجَدِيدِ .
 ثُمَّ ...





يُرْسِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ جُيُوشَهُ فِي الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَيَتِمُّ فَتْحُ بَقِيَّةِ
حُدُودِ السَّاحِلِ الْأَفْرِيقِيِّ ، وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ حَاكِمًا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ يَفْقِدَ مَعَهُمْ
صَلْحًا ، وَيَأْخُذُ الْجَزِيرَةَ الَّتِي قَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِ مُتَنَصِّرًا . ثُمَّ يَعُودُ إِلَى
مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى .

وَهَكَذَا تَتَشَرَّقُ شَمْسُ الْإِسْلَامِ عَلَى بَقْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، هِيَ شِمَالُ
أَفْرِيقِيَا .

